

تخطيط الفراء للقراء دراسة لغوية ونحوية

م. م. إبراهيم عطية صالح

م. م. عبد الله خلف صالح

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه أجمعين، محمد الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، وبعد :

فقد نزل القرآن على قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وكان نزوله انعطافاً في حياة الخلق جميعاً، وقد شغل الناس به قديماً وحديثاً، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكان أن نشأت علوم أخرى بجانب دراسة إعجاز القرآن خادمة له ومن ذلك علوم العربية التي جاءت لخدمة القرآن الكريم.

وقد بعث صلى الله عليه وسلم إلى أمةٍ تختلف فيها بعض القبائل عن الأخرى من حيث طريقة اللهجات التي تنطق بها هذه القبائل فكانت نشأة القراءات وظهورها أمراً حتمياً لا بد منه؛ لاختلاف القبائل في بعض صفاتها اللهجية والنطقية وكان أمر فهم القرآن من كل القبائل العربية ضرورة ملحة لنشر الإسلام.

لذلك فقد اصطدم النحاة بعد وضع أقيستهم وأحكامهم النحوية بقراءاتٍ لم تكن موافقة لتلك الأقيسة، فوقفوا في حيرة منها، فمنهم من خطأ قراءها، ومنهم من قبلها على مخالفتها قواعد العربية.

وقد كان التصور السائد لدى كثير من الباحثين أن البصريين كانوا متشددين في قبول القراءات، وكانوا معتزين بأقيستهم وأصولهم على خلاف الكوفيين الذين قبلوا القراءات المتواترة والشاذة وصاغوا منها قواعدهم وأصولهم في النحو واللغة.

لذلك جاء هذا البحث لدراسة كتاب ((معاني القرآن)) للفراء أحد شيوخ الكوفيين في النحو واللغة، وكان أعلم الناس عندهم بعد الكسائي - شيخ الكوفيين الأول في اللغة والنحو والقراءات، بحثاً عن مواضع تخطئته للقراء الذين اتفقت الأمة على قبول قراءاتهم وإنزالها منزلاً يليق بها مهما كانت مخالفتها لأقيسة النحاة.

وجاء هذا البحث مقسماً على مقدمة ومبحثين، تناولت في المبحث الأول نشأة القراءات القرآنية وموقف النحاة منها وصولاً إلى موقف الفراء الكوفي من القراءات ومن قرائها، وقد تناولت موقفه في المبحث الثاني الذي جاء بعنوان ((تخطئة الفراء للقراء)) مبيناً أهم الأسس التي اعتمد عليها في ذلك.

وأسأل الله أن أكون قد وفقت في بحثي هذا ولا أدعي الكمال فإن الكمال صفة الله تعالى وحده، ولكني بذلت المستطاع والله سبحانه هو الحافظ من الزلل وهو يهدي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول

القراءات القرآنية وموقف النحاة منها

لاشك في أن القرآن الكريم هو الكتاب المنزل من الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) عن طريق الوحي، ولم يعهد العرب في جاهليتهم كلاماً مثله حتى ذهب بهم الحال إلى اتهام رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بعد إعجازه لهم بالقرآن بالسحر والكهانة والشعر والجنون، مما حكاها لنا القرآن.

وقد أرسل (صلى الله عليه وسلم) إلى أمة مترامية الأطراف، ومتناثرة القبائل والأماكن، كل قبيلة لها خصائصها اللهجية في الكلام من حيث النطق كالإمالة والفتح والهمز والتسهيل، وذكر بعض الكلمات في لهجة دون أخرى على ما ورد في كتب القراءات القرآنية، ومن هنا كان يجب أن يفهم القرآن الكريم من قبائل العرب الداخلة في الإسلام لتحقيق الغاية المرجوة، وهي التبليغ بالرسالة إلى الناس أجمعين على وفق فهمهم مع المحافظة على النص القرآني المنزل.

وليس هذا البحث مخصصاً لتحديد تاريخ نشأة القراءات القرآنية من أيامها الأولى، فالقراءات القرآنية نشأت في بواورها الأولى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أسباب نشأتها التي لم يختلف فيها أحد طريقة قراءة القبائل العربية للقرآن الكريم، مما جعل الأمر يصل إلى حد خطير جداً، والاختلاف في القراءات للسورة الواحدة، كما روي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شك في قراءة هشام بن حكيم في سورة الفرقان بحروف تختلف عن الحروف التي أقرأها النبي (صلى الله عليه وسلم) عمر، ثم ما كان من عمر إلا أن جرّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي شهد بأن ما يقرأ به كلاهما صحيح، لأن القرآن نزل على سبعة أحرف، وعلى المسلمين أن يقرءوا ما تيسر منها^(١)، أو ماروي عن أبي بن كعب (رضي الله عنه) أنه قال ((دخلت المسجد أصلي، فدخل رجل فافتتح النحل، فخالفتني في القراءة، فلما انفتل قلت من أقرأك هذا ؟ قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قال فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية، فأخذت بأيديهما، فانطلقت بهما إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقلت : استقرئ هذين، فاستقرأ أحدهما، قال أحسنت، فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان، ثم استقرأ الآخر، فقال : أحسنت، فدخل قلبي من الشك والتكذيب أشد مما كان في الجاهلية، فضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدري بيده، فقال : أعيدك بالله يا أباي من الشك، ثم قال إن جبريل (عليه السلام) أتاني فقال: إن ربك - عز وجل - يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين، فقلت : اللهم خفف عن أمتي، ثم عاد فقال : إن ربك (عز وجل) يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، وأعطاك بكل ردة مسألة))^(٢).

وقد تناول علماء السلف مصطلح الأحرف السبعة، ولهم في ذلك آراء كثيرة^(٣) أرجحها أن المراد بها اللغات التي تختلف بها لهجات القبائل العربية، حتى يوسع على كل قوم أن يقرؤوه بلهجتهم التي جبلوا عليها، وهكذا كان العرب يفهمون من مصطلح الحرف إنه اللغة، إذ نراهم في كتبهم يقولون هذا حرف ابن مسعود يعنون قراءته، أو لغته أو لهجته^(٤) يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه...) ^(٥) ومهما يكن من أمر فقد استوت القراءات القرآنية على سوقها، كل قبيلة لها قراءتها التي تختلف في بعض خصائصها اللهجية والصرفية والنحوية، حتى

دفع ذلك حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) (ت ٣٦هـ) إلى الإسراع لنجدة الأمة الإسلامية بعدما هاله ما رأى سنة (٢٥هـ) في فتح نهاوند من تناحر أهل الشام وأهل العراق من جنده، وفي أثناء فتوحاته في أذربيجان وأرمينية، لخلافات كان يلحظها كل فريق لدى قراءة الفريق الآخر لآيات الذكر الحكيم، فما كان منه إلا أن هرع إلى عثمان (رضي الله عنه) مصوراً له خطورة الموقف، راجياً إياه العمل على وضع حد لتلك الخلافات، كيلا يصير أمر المسلمين إلى ما صار إليه أمر غيرهم من أهل الديانات السابقة^(٦) مما حدا بعثمان (رضي الله عنه) إلى توحيد المصاحف على مصحف واحد سمي بالإمام، ونسخ عدة مصاحف عليه وتوزيعها على بعض الأمصار الإسلامية كما هو معروف^(٧).

والذي يهمنا هنا هو بقاء بعض هذه القراءات لتمثل لهجات لقبايل معينة، وموقف النحاة منها، وينبغي هنا التفريق بين القرآن الكريم والقراءات القرآنية، لنرى موقفهم منها كلاً على حدة، فالقرآن الكريم هو الوحي المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) للبيان والإعجاز، والقراءات هي : اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كفيته من تخفيف وتنقيح وغيرها^(٨)، أما آراؤهم فقد اتفقت كلمتهم - على اختلاف مذاهبهم النحوية - على أن القرآن الكريم هو الينبوع الصافي والمعين الذي لا ينضب للشواهد الصحيحة الفصيحة، وقد أطروه بما يستحقه، وقالوا فيه بما هو أهله^(٩) فسيبويه كان من أكثر النحاة تمسكاً بالشاهد القرآني، وإجلالاً له، وكان يضعه بالمرتبة الأولى، لأنه أبلغ كلام نزل وأوثق نص وصل، ولأنه يمثل العربية الأصيلة، والأساليب الرفيعة، ويخاطب العرب بلغتهم وعلى ما يعنون^(١٠) وكان الفراء يرى أن القرآن الكريم ((أعرب وأقوى في الحجة من الشعر))^(١١) وعلى هذا سار جميع نحاة العرب فيما بعد.

أما القراءات القرآنية فكان للنحاة منها موقف آخر بين محتج بها، وراذ لبعضها على وفق أقيسة النحو التي كان يراها تصلح قواعد لمذهبه النحوي في هذه المسألة أو تلك، على أن هـ من الجدير بالإشارة إلى أن القراءات القرآنية استقرت في القرن الرابع على يد ابن مجاهد (ت ٣٢٨هـ) على ثلاثة أسس ذكرها أبو عبيد القاسم ابن سلام (ت ٢٢٤هـ) وأوجزها ابن الجزري (ت ٨٣٥هـ) بقوله^(١٢):

فكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالاً يحوي

وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

فضابط القراءة القرآنية المتواترة عندها: كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة في القراءة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء أكانت من القراء السبعة المشهورين أم من غيرهم، يقول :

وحيثما يختل ركن أثبت شذوذه لو أنه في السبعة

وهذا هو الضابط الصحيح للقراءات عند أئمة السلف وقد ارتضوه وأثنوا على قائله ثناءً عظيماً^(١٣).

والذي يهمنا هو موقف النحاة من هذه القراءات ومن قرائها، إذ يقول الدكتور مهدي المخزومي مبيناً موقف أهل البلدين في ذلك (والقراءات مصدر مهم من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية، وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم - ولو بالتأويل - قبلوه، وما أبأها فقد رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية، وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها)^(١٤).

وترى الدكتورة خديجة الحديثي أنّ الكوفيين كانوا يأخذون بالقراءات السبع وبغيرها من القراءات يحتجون بها فيما له نظير من العربية ويجيزون ما ورد فيها مما خالف الوارد عن العرب، ويقيسون عليها فيجعلونها أصلاً من أصولهم التي يبنون عليها القواعد والأحكام، وهم إذا رجحوا القراءات التي يجمع عليها القراء لا يرفضون غيرها ولا يغلطونها^(١٥).

ولعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنّ حكم الدكتور مهدي المخزومي والدكتورة خديجة الحديثي على الكوفيين والبصريين ليس مضبوطاً بشكل كامل، فالبصريون والكوفيون على السواء قد خطئوا بعض القراءات القرآنية، على أن سيبيويه شيخ النحاة

البصريين الذين كانوا - كما يذكر الأستاذان الفاضلان - يخضعون القراءات لأقيستهم وإجماعهم وأصولهم المعتمدة في أحكامهم النحوية لم يعب قارئاً ولم يخطئ قراءةً، بل كان يذكرها ليبين وجهاً من العربية وليقوي ما ورد عن العرب^(١٦).

وألّف ابن جني (ت ٣٩٢هـ) الذي كان شديد الميل إلى البصريين كتابه (المحتسب) دفاعاً عن القراءات الشاذة، إذ يقول في وصفها بعد أن قسم القراءات إلى متواترة وشاذة (وَضْرِباً تُعَدُّ ذَلِكَ، فَسَمَاءُ أَهْلِ زَمَانِنَا شَاذًا، أَيْ خَارِجًا عَنِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ السَّبْعَةِ... إِلَّا أَنَّهُ مَعَ خُرُوجِهِ عَنْهَا نَازِعٌ بِالنُّقَّةِ إِلَى قِرَائِهِ، مُحْفُوفٌ بِالرَّوَايَاتِ عَنْ أَمَامِهِ وَوَرَائِهِ، وَلَعَلَّهُ أَوْ كَثِيرًا مِنْهُ مَسَاوٍ لِلْفَصِيحِ الْمَجْتَمِعِ عَلَيْهِ، نَعَمْ وَرَيْبًا كَانَ فِيهِ مَا تَلَطَّفَ صَنَعَتُهُ، وَتَعَنَّفَ بَغْيَرُهُ فَصَاحَتُهُ وَتَمَطَّوهُ قُوَى أَسْبَابِهِ، وَتَرَسَّوْهُ بِهِ قَدَمُ إِعْرَابِهِ... وَلَسْنَا نَقُولُ ذَلِكَ فَسَحًا بَخْلَافِ الْقُرْآنِ الْمَجْتَمِعِ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ عَلَى قِرَاءَاتِهِمْ، أَوْ تَسْوِغًا لِلْعُدُولِ عَمَّا أَقَرَّتْهُ النُّقَاتُ عَنْهُمْ، لَكِنْ غَرَضُنَا مِنْهُ أَنَّ نَرَى وَجْهَ قُوَّةِ مَا يُسَمَّى الْآنَ شَاذًا، وَأَنَّهُ ضَارِبٌ فِي صَحَةِ الرِّوَايَةِ بِجَرَانِهِ، أَخَذَ مِنْ سَمَتِ الْعَرَبِيَّةِ مَهْلَةً مِيدَانِهِ، لَنَلَا يَرَى مُرَى أَنَّ الْعُدُولَ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ غَضٌّ مِنْهُ، أَوْ تَهْمَةٌ لَهُ)^(١٧).

على أن موقفي سيبيويه وابن جني لا يعنيان أنَّ البصريين الآخرين لم يردوا بعض القراءات ولم يخطئوا قراءها، ومن أمثلة ذلك تضعيفهم قراءة نافع لقوله تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون) (الأعراف ١٠) إذ قرأها معائش بالهمز فقد ضعفها المازني (ت ٢٤٩هـ) ووصف نافعاً بأنه لم يكن يدري ما العربية^(١٨)، وقال الزجاج (ت ٣١١هـ) فيها (إن جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ)^(١٩).

ولعل هذا البحث يكون إسهامة في بيان أمر قد جاءت الحقيقة العلمية على خلافه، وهو موقف الكوفيين من القراءات القرآنية من خلال البحث في كتاب معاني القرآن لأبي زكريا الفراء الذي يُعَدُّ من مؤسسي المذهب الكوفي في النحو -إن صح التعبير- وهو أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي^(٢٠)، وكتابه من أقدم ما وصل إلينا من مؤلفات من أجمع أهل العربية على تسميتهم بالكوفيين، حاولت فيه استقصاء آرائه في القراءات القرآنية وموقفه منها، وذكر بعض مواضع تخطئته للقراء المجمع على قراءاتهم،

مع بيان الأسس أو المصادر التي اعتمد عليها في أحكامه على القراءات القرآنية التي خطأ القراء فيها، مما سيأتي بيانه وتفصيله في المبحث القادم - إن شاء الله - وأمل في ذلك أن أعرض رأي الكوفيين في القراءات القرآنية على وفق أحد أهم مصادرهم المعتمدة في النحو والقراءات (معاني القرآن) وليس على أساس التعصب لهذا المذهب أو ذاك بل لتبين الحقيقة التي ذهب بعض دارسي العربية إلى خالفها^(٢١).

المبحث الثاني

تخطيط الفراء للقراء

نشأ النحو بعد دخول الأقوام غير العربية إلى الإسلام، لصون ألسنتهم من الزلل، ولمعرفة دقائق العربية التي نزل بها القرآن الكريم ولتبيين أمور الدين الجديد، إذ إن الحركة اللغوية عامة، والنحوية خاصة بدأت أول ما بدأت بدافع من إقبال الأقوام الأعجمية الداخلة في دين الله أفواجا، على تعلم العربية وقراءة القرآن الكريم الذي هو السجل الجامع لأمر الدين، من عبادة وتشريع وتنظيم لعلاقات المسلمين بعضهم ببعض. وكانت نشأة القراءات القرآنية سابقة من حيث الزمن لنشأة النحو. إذ إنَّ القراءات متواترة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعن كبار الصحابة، لذلك فقد ورث النحاة ولاسيما بعد أبي عمرو ابن العلاء (ت ١٥٤هـ) قراءات خارجة عن قواعدهم وأقيستهم التي ضبطوا بها الكلام العربي ومن هنا بدأ التعليل النحوي والتأويل لوجوه القراءات، وربما تعدى الأمر إلى تخطيط بعض القراء وتضعيف قراءاتهم.

والفراء هو أحد النحاة الذين جعلتهم القواعد النحوية والأقيسة التي اعتدوا بها على حساب القراءات القرآنية المتواترة الواردة عن القراء المعتبرين المشهورين يخطئون القراء في مواضع كثيرة متناسيا أنَّ القراءة سنة متبعة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن صحة السند أهم شروط القراءة القرآنية، إذ إنها إن وافقت العربية، ولم يصح سندها لم تقبل بأي حال من الأحوال، وليس له عذر في ذلك لأنَّ ضوابط القراءات القرآنية ذكرها أبو عبيد القاسم بن سلام كما ذكرنا من قبل، بعد أن رأى اجتهادات الناس في القراءات القرآنية، وظهور

قراءات كثيرة ليس لها وجه صحة، وقد دعا ابن مجاهد إلى استنابة ابن شنبوذ وابن مقسم اللذين قرأاً بقراءات بعيدة عن الواقع الذي جاءت به القراءات القرآنية.

وللفراء قراءات كثيرة تبدو شخصيته فيها واضحة المعالم. إذ أخضع هذه القراءات في معظمها إلى الاقيسة النحوية فكان يقول: (وفي قراءتنا كذا) ^(٢٢) و(ولو قرئت كذا لكان صواباً...) ^(٢٣) الخ من العبارات التي تدل على أنه اختار بعض القراءات وفقاً لفهمه للقراءة، واستناداً إلى التوجيه النحوي الذي كان يراه مناسباً، إذ أنه كان يختار القراءة، وقد يتبناها بعد أن يقلبها على وجوه عدة، وبعد أن يركز على مرتكزات معينة ليرسو على توجيه محدد لاختياراته، وغالباً ما يكون هذا التوجيه نحوياً.

وقد اعتمد الفراء على جملة مصادر ليخطئ بها القراء، أو يرد قراءتهم، ومن أهم هذه المصادر ما يأتي :

أولاً : القواعد النحوية التي وضعها النحاة لتقعيد العربية ؛ ومن ذلك رده لقراءة عبد الله ابن عامر المشهورة لقوله تعالى : (وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ) (الأنعام ١٣٧) وذلك حين قرأ (زَيْنٌ) مبنياً للمجهول و(قَتَلَ) مرفوعاً، و(أَوْلَادَهُمْ) منصوباً، و(شُرَكَاءُهُمْ) مجروراً، ففصل في هذه القراءة بين المضاف والمضاف إليه، والنحاة لا يرون ذلك إلا في الضرورة الشعرية، وليس في كل لفظ، فهم يرون أن المضاف والمضاف إليه يكونان كلمة واحدة مركبة أو بمثابة الاسم وتنوينه، فكيف يفصل بين الاسم والتنوين، فلذلك أطلقوا على هذه القراءة أحكاماً لم يطلقوها على قراءة قرآنية أخرى ^(٢٤)، والذي يعنينا هنا هو رد الفراء، إذ رأى أنها ليست بشيء، فقد قال مشيراً إليها : (وليس قول من قال : إنما أراد مثل قول الشاعر :

فزججتها متمكناً زجَّ القلوصِ أبي مزاده

بشيء، وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز، ولم نجد مثله في العربية) ^(٢٥). ومن الأمثلة الأخرى تخطئته لقراءة ابن عامر لقوله تعالى : (وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة ١١٧)، بنصب (يكون)، قال : (رفع، ولا يكون نصباً وإنما هي مردودة على (يقول)، فإنما يقول فيكون، وكذلك قوله : ويوم يقول له كن فيكون قوله

الحق ((الأنعام ٧٣)، رفع لا غير، وأمّا التي في النحل: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (النحل ٤٠) فإنها نصب^(٢٦).

ومن أمثلة اعتماده على الأقيسة النحوية في تخطيطه لبعض القراءات، تخطيطه لقراءة قتادة لقوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) (الانشقاق ١-٢) إذ قرأها قتادة (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ أَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) بغير واو، قال الفراء: (ولست أشتي ذلك لأنها في مذهب: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (التكوير ١) و: إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ) (الانفطار ١) فجواب هذا بعده (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) (التكوير ١٤) و: عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (الانفطار ٥)^(٢٧)، كأنه يريد بقوله (لأنها في مذهب...) ورود الجملة الثانية بعد إذا مقرونة بواو العطف.

ثانياً: أما المصدر الثاني من مصادر تخطيط الفراء للقراء فكان القواعد الصوتية والصرفية التي قررها علماء العربية في ضبط أوزان الكلام العربي.

ومن أمثلة ذلك تخطيطه للأعشى وعاصم في جزمهما الهاء في قوله تعالى: : يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ) (آل عمران ٧٥)، : نَوَّلَهُ مَا تَوَلَّى) (النساء ١١٥)، و: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) (الأعراف ١١١)، (شَرَّأَ يَرَهُ) (الزلزلة ٧) و (شَرَّأَ يَرَهُ) (الزلزلة ٨) قال مشيراً إلى الآيات السابقة وإلى قراءتهما لها: (وكان الأعشى وعاصم يجزمان الهاء... وفيه لهما مذهبان، أما أحدهما فإن القوم ظنوا أن الجزم في الهاء إنما هو فيما قبل الهاء. فهذا، وإن كان توهمًا خطأ. وأما الآخر: فإن من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها. فيقول ضربته ضرباً شديداً، أو يترك الهاء إذا سكنها، وأصلها الرفع بمنزلة رأيتهم وانتم، ألا ترى أن الميم سكنت وأصلها الرفع، ومن العرب من يحرك الهاء حركة بلا واو، فيقول: ضربته (بلا واو) ضرباً شديداً، والوجه الأكثر أن توصل بواو، فيقال: كلمتهو كلاماً، على هذا البناء، وقد قال الشاعر في حذف الواو:

أنا ابن كلاب وابن قيس فمن يكن قناعه مُغْطِياً فإني لمجتلي

وأما إذا سكن ما قبل الهاء فإنهم يختارون حذف الواو من الهاء، فيقولون دعه يذهب، ومنه، وعنه، ولا يكادون يقولون منهو، ولا عنهو، فيصلون بواو إذا سكن ما قبلها، وذلك أنهم

لا يقدرّون على تسكين الهاء وقبلها حرف ساكن، فلما صارت متحركة لا يجوز تسكينها اكتفوا بحركتها من الواو^(٢٨).

ومن الأمثلة الأخرى تخطئته لحمزة في قراءته لقوله تعالى : (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) (الشمس ١)، إذ وصف حمزة بقلّة البصر بمجاري كلام العرب، قال : (وَضُحَاهَا : نهارها،... وهو النهار كله بكسر الضحى من ضحاها، ودحاها، لما ابتدأت السورة بحرف الياء والكسر أتبعها ما هو من الواو، ولو كان الابتداء للواو لجاز فتح ذلك كله وكان حمزة يفتح ما كان من الواو، ويكسر ما كان من الياء، وذلك من قلة البصر بمجاري كلام العرب، فإذا انفرد جنس الواو فتحه، وإذا انفرد جنس الياء، فأنت فيه بالخيار، إن فتحت وإن كسرت فصواب^(٢٩). والكلام هنا عن الإمالة في (وضحاها) المتقدمة.

ومن ذلك تخطئته لقراءة زهير الفرقي لقوله تعالى : : مُتَكَيِّنَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (الواقعة ٧٦)، إذ قرأها زهير (متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان) قال الفراء : (الرفارف قد يكون جواباً، وأما العبا قري فلا؛ لأنّ ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف، ولا ثلاثة صحاح^(٣٠)).

ثالثاً : ومن المصادر الأخرى التي اعتمد عليها الفراء في تخطئته للقراء هي الدلالة المعجمية والسياقية للكلمة، وأثرها في تأدية المعنى المراد.

ومن ذلك استدلاله لقراءة أصحاب عبد الله قوله تعالى : : وَحُورٌ عِينٌ Z (الواقعة ٢٢) بالخفض، ورده لقراءة من قرأ بالرفع، إذ قال : (خفضها أصحاب عبد الله وهو وجه العربية، وإن كان أكثر القراء على الرفع، لأنّهم هابوا أن يجعلوا الحور العين يطاف بهن، فرفعوا على قولك : ولهم حورٌ عِينٌ، أو عندهم حور عِين. والخفض على أن تتبع آخر الكلام بأوله، وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله، أنشد بعض العرب :

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا

فالعين لا تزجج وإنّما تكحل فردّها على الحواجب، لأنّ المعنى يعرف، وأنشدني آخر :

ولقيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد فرده على السيف...

وقد كان ينبغي لمن قرأ: وحوّر عين، لأتّهنّ - زعم - لا يطاف بهنّ أن يقول :
(وفاكهة ولحم طير) لأنّ الفاكهة والطير لا يطاف بهما، وليس يطاف إلا بالخمير وحدها،
ففي ذلك بيان، لان الخفض وجه الكلام^(٣١).

ومن ذلك قوله عند تفسيره لقوله تعالى : (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) (يونس ٧١)،
الإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر، ونصبت الشركاء بفعل مضمر وكأنك قلت :
فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم، وكذلك هي في قراءة عبد الله، والضمير هاهنا يصلح إلقاؤه،
لا أن معناه يشاكل ما أظهرت، كما قال الشاعر :

ورأيت زوجك في الورى متقلداً سيفاً ورمحاً

فنصبت الرمح بضمير الحمل، غير أن الضمير صلح حذفه، لأنها سلاح يعرف ذا بذا،
وفعل هذا مع فعل هذا، وقد قرأها الحسن (وشركاؤهم) بالرفع، ولست اشتبهه لخلافه للكتاب،
ولأنّ المعنى فيه ضعيف، لأن الآلهة لا تعمل ولا تجمع^(٣٢).

ومنه قوله في تفسير الآية الكريمة : (كَيِّ لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) (الحشر ٧)، (الدولة : قرأها الناس برفع الدال إلا السلمي - فيما أعلم - فإنه قرأها (دولة)
بالفتح، وليس هذا للدولة بموضع، وإنما الدولة في الجيشين يهزم هذا، ثم يهزم الهازم، فتقول
قد رجعت الدولة على هؤلاء، لأنها كالمرة، والدولة في الملك والسنن التي تغير وتبدل على
الدهر، فتلك الدولة^(٣٣).

ومن ذلك قوله تفسيراً للآية الكريمة : (لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) (عبس ٣٧)،
أي : يشغله عن قرابته، وقد قرأ بعضهم (يعنيه)، وهي شاذة^(٣٤)، قال ابن جني : (وهذه
قراءة حسنة إلا أنّ التي عليها الجماعة أقوى معنى، وذلك أن الإنسان قد يعنيه الشيء، ولا
يعنيه عن غيره)^(٣٥).

ومن ذلك الآية الكريمة (سلام هي حتى مطلع الفجر)، (القدر ٥)، إذ قرأها
يحيى بن وثاب بكسر لام (مطلع) و قال الفراء، وقول الجمهور من العلماء أقوى في قياس

العربية، لأنَّ المَطْلَع بالفتح هو الطلوع، والمَطْلِعُ : المشرق، والموضع الذي تطلع منه، إلا أنَّ العرب يقولون : طلعت الشمس مطلِعاً، فيكسرون وهم يريدون المصدر، كما تقول أكرمتك كرامة فتجزئ بالاسم عن المصدر، وكذلك قولك : أعطيتك عطاء، اجتزئ فيه بالاسم عن المصدر^(٣٦).

قال المحقق تعليقا على قول الفراء (كسره يحيى) ... (وقرأ به أيضاً أبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن محيصن ولكسائي وأبو عمر، بخلاف عنه فقيلاً هما مصدران في لغة تميم، وقيل المصدر بالفتح، وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز)^(٣٧).

رابعاً : ومن مصادر تخطئته للقراء الاعتماد على وجه تفسيري للكلمة التي وقع الخلاف عليها بينه وبين القراء، ومن ذلك اختياره للنصب في قوله تعالى : (قُولُوا حِطَّةٌ...) (البقرة ٥٨)، إذ قال : (وبلغني أنَّ ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : أمروا أن يقولوا نستغفر الله، فإن يكن كذلك (حطة) منصوبة في القراءة، لأنَّك تقول : قلت لا اله الا الله، فيقول القائل، قلت كلمة صالحة و وإنما تكون الحكاية إذا صلح قبلها إضمار ما يرفع أو يخفض أو ينصب، فإذا ضمنت ذلك كله، فجعلته كلمة كان منصوباً بالقول كقولك :) مررت بزيد ثم تجعل هذه كلمة فتقول : (قلت زيد قائم، فيقول قلت كلاماً، وتقول : قد ضربت عمراً، فيقول أيضاً، قلت كلمة صالحة)^(٣٨).

فهو قد اختار النصب في هذه الآية بناء على مدلول لفظة (قال) وتفسير وجه الكلام فيها، أي أنه جعل جملة مقول القول فيها مفعولاً به، ونصبه لذلك الأمر والنصب فيها على وجهين^(٣٩).

أحدهما إعمال الفعل فيها، وهو قوله (قولوا)، أي : قولوا كلمة تحط عنكم أوزاركم. والثاني: أن تتسبب على المصدر بمعنى الدعاء والمسألة، أي : تحط الله أوزارنا وذنوبنا حطة.

والنصب قراءة ابن أبي عبلة وطاوس اليماني، والقراءة العامة بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي : مسألتنا حطة، أو أمرك حطة، قال النيسابوري : (وأصله النصب، ومعناه اللهم حط عنا ذنوبنا ورفعت لإفادة الثبوت)^(٤٠).

ومن ذلك تخطيطه لقراءة شيبه وأبي جعفر القارئ لقوله تعالى : (ولا يسأل حميم حميماً) (المعارج ١٠). إذ يقول وقرأ بعضهم (ولا يسأل حميم حميماً) بالضم،^(٤١) لا يقال لحميم أين حميمك؟ ولست أشتي ذلك، لأنه مخالف للتفسير، ولأن القراء مجتمعون على (يسأل) ^(٤٢).

خامساً : الاعتماد على رسم المصحف في تخطيط القراء :

إذ نراه تارة يحتج برسم المصحف لتخطيط قراءة قرآنية، وتارة يستدل بقراءة قرآنية لتصحيح قراءة أخرى مخالفة لرسم المصحف، فمثال الأولى ما رآه في قوله تعالى : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) (الأنعام ١٤٥)، إذ يقول : (وفي الميتة وجهان الرفع والنصب، ولا يصلح الرفع في القراءة، لأن الدم منصوب بالرد على الميتة، وفيه ألف تمنع من جواز الرفع...) ^(٤٣)، علماً أن الرفع في ميتة هو قراءة عبد الله بن عامر ^(٤٤).

وأما مثال الثانية فاحتج به قراءة عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ليصحح بها قراءة أبي عمرو بن العلاء التي تخالف رسم المصحف لقوله تعالى : (أَصْدَقَ وَأَكْنَ مَنْ الصَّالِحِينَ) (المنافقون ١٠)، إذ كان يقرأ بالواو في (أكون)، قال : (لأنَّ الواو ربما حذفت من الكتاب، وهي تزداد لكثرة ما تنقص وتزداد في الكلام، ألا ترى أنَّهم يكتبون (الرحمن) و (سليم) بطرح الألف والقراءة بإثباتها، فلهذا جازت، وقد أسقطت الواو من قوله : (وَيَذُحُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ) (الإسراء ١١)، والقراءة على نية إثبات الواو، ثم قال : فهذا شاهد على جواز (وَأَكُونَ مَنْ الصَّالِحِينَ) ^(٤٥).

مما تقدم يتضح أن الفراء قد اعتمد أسساً عديدة في تخطيط بعض القراءات القرآنية، وكان أهم أسسه القواعد النحوية التي وضعها النحاة لضبط الكلام العربي، فقد قدمها في أحيان كثيرة على القراءات القرآنية المتواترة والمشهورة التي تلقنتها الأمة بالقبول، ويبدو أن صحة السند لم تكن في أحيان كثيرة ذات أهمية كبيرة عند الفراء، مقارنة باقيسة النحاة وقواعدهم، وليس له عذر لأنَّه عاصر القاسم بن سلام الذي وضع قواعد صحة القراءات القرآنية. والأمر الثاني : أنَّ الفراء كان يحسب أنَّ كل ما وافق وجهاً نحوياً في قراءته جازت

القراءة به غير مؤثر للرواية التي يصح سندها عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في بعض الأحيان.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

نستخلص مما سبق أنَّ البصريين لم يكونوا هم الوحيدين الذين خطأوا القراءة، بل شمل هذا الأمر بعض الكوفيين كالفراء كما تقدم ذلك، إذ إن من الخطأ أن ننسب إخضاع القراءات القرآنية إلى أقيسة النحاة وتعليقاتهم إلى البصريين وحدهم، إذ كان هذا المنهج عاماً لكلا المذهبين، على أنَّ من الجدير بالذكر أن تخطئة النحاة لبعض القراء وإخضاع القراءات لأقيستهم ظهر في نهايات القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجري كما يتضح ذلك عند الفراء والمازني وغيرهم.

ونلاحظ أيضاً أن الفراء قد اعتمد أسساً في تخطئة لبعض القراءات منها أهم أسسه القواعد النحوية والصوتية والصرفية والدلالة المعجمية وأوجه تفسير الكلمة واعتماده على رسم المصحف.

وأخيراً فإنَّ هذا البحث هو إطلالة في موقف الفراء من القراءات القرآنية، حاولت فيه استقصاء مواقفه من بعض القراءات، على أنَّني قد تركت كثيراً منها خشية الإطالة في ذكرها، وأسأل الله أنِّي قد وفقت في بيان هذا الأمر، والله من وراء القصد. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين

الهوامش

١ ينظر النشر في القراءات العشر ٢٣/١.

- ٢ المصدر نفسه ٢٣/١، وذكره الإمام أحمد في مسنده برواية تختلف قليلا ينظر مسند الإمام أحمد ٤٠٤/١٥.
- ٣ للتفصيل ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٥٧-٥٩.
- ٤ إعجاز القرآن والبلاغة البدوية ٥٨، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي ١٥-١٦،
- ٥ تأويل مشكل القرآن ٢٧.
- ٦ ينظر النشر في القراءات العشر ٧/١-٨.
- ٧ البرهان في علوم القرآن ٣١٨/١.
- ٨ الشواهد والاستشهاد في النحو ٢٠٠-٢٠١.
- ٩ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ٣١.
- ١٠ معاني القرآن ١٤/١.
- ١١ شرح طيبة النشر في القراءات العشر ٧، وابن الجزري هو أحمد بن محمد بن محمد
- الجزري، ابن صاحب النشر في القراءات العشر.
- ١٢ شرح طيبة النشر في القراءات العشر ٧.
- ١٣ اتقان في علوم القرآن ٩٤/١.
- ١٤ مدرسة الكوفة ٣٨٤.
- ١٥ ينظر الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ٤٧.
- ١٦ المصدر نفسه ٥٠.
- ١٧ المحتسب ٢٣-٣٣/١.
- ١٨ الأنصاف في مسائل الخلاف ٣٢٧/١.
- ١٩ المصدر نفسه ٣٢٧/١.
- ٢٠ ينظر معجم الادباء ٩/٢٠.
- ٢١ ينظر مدرسة الكوفة ٣٨٤-٣٨٩، الشاهد وأصول النحو ٤٧/٤٨، الشواهد والاستشهاد في النحو ٢٣٧-٢٧٩.
- ٢٢ معاني القرآن ١٩٢/١.
- ٢٣ معاني القرآن ٣٥١/١.
- ٢٤ أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي ٤٥.

- ٢٥ ينظر قراءة ابن عامر ومصادرها وموقف النحاة منها ٢٣٩-٢٤٢.
- ٢٦ معاني القرآن ٣٥٧/١-٣٥٨.
- ٢٧ المصدر نفسه ٤٧/١، قوله فإنها نصب عطفًا على قوله، (أن نقول).
- ٢٨ معاني القرآن ٢٣٨/١.
- ٢٩ المصدر نفسه ٢٢٣/١-٢٢٤.
- ٣٠ معاني القرآن ٢٦٦/٣.
- ٣١ المصدر نفسه ١٢٠/٣.
- ٣٢ معاني القرآن ١٢٣/٣-١٢٤.
- ٣٣ المصدر نفسه ٤٧٣/١.
- ٣٤ المصدر نفسه ١٤٥/٣.
- ٣٥ المصدر نفسه ٢٣٨/٣.
- ٣٦ المحتسب ٣٥٢/٢.
- ٣٧ معاني القرآن ٢٨٠/٣-٢٨١.
- ٣٨ معاني القرآن ٢٨٠/٣، وينظر البحر المحيط ٤٩٧/٨.
- ٣٩ معاني القرآن ٣٨/١.
- ٤٠ ينظر المصدر نفسه ٣٨/١ الهامش.
- ٤١ المصدر نفسه ١٨٤/١، تفسير القرطبي ٢٨٥/١٨.
- ٤٢ ينظر المصدر نفسه ٣٨/١ الهامش.
- ٤٣ ينظر المصدر نفسه ١٨٤/٣.
- ٤٤ ينظر المصدر نفسه ٣٦١/١.
- ٤٥ ينظر المصدر نفسه ٨٧/١-٨٨، والنشر ٢٦٦/٢..

المصادر والمراجع

١. أبحاث في اللغة والنحو والقراءات، الدكتور محمد حسني مغالسة، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان الأردن، ط١، ٢٠٠٢م.
٢. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) دار الفكر بيروت ١٩٥٨م، ط٢٩.
٣. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٦٧م، ط١.
٤. أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي. الدكتور عفيف دمشقية، منشورات معهد الإنماء العربي، ليبيا، بيروت ١٩٧٨م، ط١.
٥. أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية، الدكتور عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، الكويت، ١٩٧٨م، د.ط.
٦. أثر القرآن والقراءات في النحو العربي، الدكتور محمد سمسر نجيب اللبدي، دار المكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٨م، ط١.
٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به الأستاذة نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م، ط١.
٨. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ت، د.ط.
٩. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٤٩هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٥٧م، ط١.
١٠. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى ألبابي الحلبي ١٩٥٤م، ط١.
١١. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ) راجعه وضبطه وعلق عليه الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي والدكتور محمود حامد عثمان، مطبعة دار الحديث القاهرة ٢٠٠٢م.

١٢. الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة بالتعاون مع الهيئة العامة المصرية للكتاب، بغداد، ١٩٩٠م.
١٣. الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، الدكتورة خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٣م.
١٤. شرح طيبة النشر في القراءات العشر، شهاب الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي (٨٣٥هـ)، ضبط وتعليق أنيس مهرة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٥م، ط. ١.
١٥. الشواهد والاستشهاد في النحو، عبد الجبار علوان النائلة، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٧٦م، ط. ١.
١٦. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي والدكتور عبد الحليم النجار، طبعة دار سزكين ١٩٨٦م، ط. ١.
١٧. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، الدكتور مهدي المخزومي، مطبعة دار المعرفة، بغداد ١٩٥٥م، ط. ١.
١٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) شرحه ووضع فهارسه حمزة أحمد الزين، منشورات دار الحديث - القاهرة ١٩٩٥م، ط. ١.
١٩. معاني القرآن أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق محمد علي النجار، وعلي النجدي ناصف وجماعة، عالم الكتب ودار السرور، بيروت - لبنان، ١٩٨٠م، ط. ٢.
٢٠. نحو القراء الكوفيين، خديجة أحمد المفتي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، توزيع دار الندوة الجديدة، بيروت - لبنان، ١٩٨٦م، ط. ١.

تخطيط الفراء للقراء - دراسة لغوية ونحوية

المدرس المساعد عبد الله خلف صالح / المدرس المساعد إبراهيم عطية صالح

٢٠. قراءة ابن عامر مصادرها وموقف النحاة منها، بحث منشور في كتاب أبحاث في اللغة والنحو والقراءات، الدكتور محمود حسني مغاسله، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان - الأردن، ٢٠٠٢م، ط.١.